الاجتياح الثقافى السينيمائى

ساد العالم بُعيد الحرب العالمية الثانية تيار إعلامى زَوَّق له البعض وهلَّل ، وهو: تشابك الثقافات ، وتلاحم الحضارات . نعم .. هو شىء فى مظهره طريف ظريف . فأدوات الإعلام والاتصال ، ومواد العلوم والفنون تطورت وتفشَّت وعَلَتْ ، ودخلْت كل بيت ، وتسللتْ إلى كل كوخ ، وتسربتْ إلى كل كَفْر وكهْف ونجع ، فى أى مكان على الأرض . فلا ضَيْر أن تلتقى الأمم والشعوب فى ساحات الفكر والتنوير والمعرفة ، فتغترف منها وتشرب وتعُبّ .

وبعد فترة ، اكتشف « الحكماء » أو «العقلاء » من ذوى الفطنة والبصيرة ، أن خطر البرق فى البريق ، ولفْح الحرق فى الحريق ، أو كما قال القدماء : مَسْرَى السم فى العسل. وليس هنا مجال الإسهاب فى سرد البواعث والأسباب ، ولا كشف النقاب عن مقاصد دفينة – سياسية ، ومذهبية، وتجارية لا أخلاقية ... – توارت خلف الواجهة وركِبتْ هذا التيار المتنامى ، ودفعتْه ، وزيَّنت له ، لتحقيق مآرب فضلا عن مكاسب .

وفى مجال السينيما – وهى جزء حيوى من وسائل الإعلام والتثقيف وترويج الأفكار والاتجاهات والدعايات والمستجدات (ومنها: القيم الاجتماعية والأخلاقية المنضبطة والثائرة على الانضباط) – نقول : هى فى مجالها تعطى وتأخذ ، تضيف وتسحب ، ترشد وتشتت ، وإن لها فى ذلك فضل فى الإرشاد والإضافة والعطاء ؛ وإنَّ عليها فى ذلك الأمر لوم أو تثريب . فهى وسيلة أو أداة ، ومَنْ يُحْسِنُ اتخاذ الوسيلة

ينفع ويُمتع ، ومن يجيد استخدام الأداة فى الخير والإصلاح يُشكر ويُؤجر . ومن فعل خلاف ذلك عن استخفاف وخُبث ، فقد أفسد وخرَّب .

ومن هنا ، لم يكن غريبا ولا مُستَهْجَنا أن ترتفع أصوات فى السنوات الأخيرة ، بعد انطلاق الشركات والمؤسسات الصناعية والمالية والاقتصادية الكبرى نحو «العالمية»، وبعد توقُّع اكتساح نظم رفع الحواجز الجمركية وتخطيها لكل الحدود والقيود فى مطلع القرن الحادى والعشرين ، لم يكن غريبا أن ترتفع أصوات محذِّرة منذرة ، ليس فقط من بين « العقلاء » داخل المجتمعات والدول التى يسمونها نامية أو متخلفة ، وإنما أيضا من بين « الحكماء » داخل أوروبا ذاتها – وخاصة فرنسا – الساعية نحو التوحد والتكتل . طالب هؤلاء وهؤلاء « بحماية » الثقافة القومية ، ووضع ضوابط للغزو الوافد بأدواته ، ومن بينها أفلام السينما وشرائط الفيديو وبرامج التليفزيون والإنترنت . وزاد التحذير والتبصير ، بعد أن تزايدت معدلات الجرائم والانحرافات والتسيبات والتطرفات .. وحاول مثقفون ومفكرون فرنسيون دفْع حكومتهم ومؤسساتهم التشريعية والمعنية أن تأخذ الأمر بقدر ما يستحق من جد وحزم ، وما زالوا يحاولون ..ولكن يبدو من الإحصاءات والوقائع العملية أن التيار جارف ، والسيل يواصل الاجتياح ، ولن يعبأ بتحذير أو صياح !

وهذه إحصائية نشرت فى أواخر شهر مايو ١٩٩٩ عن مدى انتشار الأفلام الأمريكية وغيرها سنة ١٩٩٨ داخل بعض الدول الأوروبية « المتقدمة » فى الإنتاج السينيمائى ، وتُبين الإحصائية نسبة كل من الأفلام التى عُرضت ، المحلية منها والأجنبية :

الدولة	من الإنتاج المحلى	أفلام أمريكية	أفلام دول أخرى	الدولة	من الإنتاج المحلى	أفلام أمريكية	أفلام دول أخرى
بلجيكا	٠,٣ ٪	٨٦,٩ ٪	١٢,٨ ٪	فرنسا	٢٥,٨ ٪	٦٨,٤ ٪	٥,٨ ٪
ألمانيا	٩,١ ٪	٨٤,٧ ٪	٦,٢ ٪	إسبانيا	١١,٨ ٪	٧٨,٧ ٪	٩,٥ ٪
بريطانيا	١٤,٨ ٪	٨٣,٩ ٪	١,٣ ٪	إيطاليا	٢٣,٥٪	٦٦,٣ ٪	١٠,٢ ٪

فهل يُفهم من هذه الإحصائية البسيطة شيء... أو أشياء ؟... ربما !!

* * *

obeikandl.com